القصة التي لا تنتهي !

قصة بقلم عبد الفتاح الحسن

كنت على موعد مع طبيب الاسنان لسحب اعصاب ضرسي المنخور .

وطبيبي هذا في العقد السادس من عمره .. ولكنه لا يزال يتمتع بصحة جيدة . فهو ممتلىء الجسم ، متقدم البطن ، احمر الوجه وخاصة تحت اذنيه ، اصلع ، اشيب البقية الباقية من شعره . طقم اسنانه مرتب ونظيف .

والمرات القليلة التي اسلمت فيها فمي ليديه العصبيتين وكلاباته القاسية المختلفة القياسات اتاحت لي ان اكتشف من تصرفاته وحديثه ان العقلية التركية القديمة لا تزال تتشبث بالكثير من افكاره ومبادئه. فهو إلى جانب تقديره للمبادىء السامية مادي محض ! وهو قاسي اللهجة والسحنة يستر بهما خوره الذي يفضحه طقم اسنانه وبعض العضلات التي تتوتر في اسفل ذقنه وعنقه كلما شد بيديه او كشر عن اسنانه . وما اكثر ما يشد ويكشر .. فهو يشد على الكلمة التي ينطق .. ويكشر .. ويشد على الكلابة بين اصابعه ، وعلى جبيني بيده الاخرى حتى ليكاد يعصر رأسي بين راحتيه ومسند الكرسي . ويشد ايضا على الندفة الصغيرة من القطن يمسكها بين اصابعه ويكشر ..

.. وجاء دوري بعد سيدة نحيلة غادرت عيادته بسرعة كأنها هاربة .

وجلست بين يديه مهتما مغتما . اليوم سحب الاعصاب .. آلم مراحل تطبيب الضرس .

لم اكد اجلس بين يديه حتى بادرني بسؤال سخيف . قال :

ـ « كم عمرك يا استاذ ؟ »

رفعت نظري اليه مستغربا . كنت انتظر ان يسالني عن كل شيء يخصني الا عمري .. فما اكثر التفاهات التي حدثني عنها فالهاني عن جعجعة « الخربر » التي كانت تخدر حنكي . اما عمري فقد حيرني سؤاله عنه .. ولم يخطر ببالي قط ان سؤاله هذا سيخفي وراءه قصة ممتعة . وسأل :

ـ « خمس وعشرون سنة ؟ »

ـ « بل اثنان وعشرون . »

ـ « ان ثلاث سنوات ليست فرقا يذكر . ولكنك ، البركه ، كأنك ابن خمس وعشرين سنة . هذه السن تلبسك لباسا ما شاء الله ! »

وساد جونا صمت كنت ارقبه خلاله وهو يندف برؤوس اصابعه بعض قطع القطن ثم يعود فيلفها حول رؤوس بعض الملاقط الدقيقة امامي .

ـ « يا استاذ ... » وسكت . ثم هز رأسه ورفع حاجبيه ، وقرب اهدابه الى بعضها قليلا .. وتأملني . لم اشك في تردده في اعلان شيء ما ... فنظراته لم تلبث ان تحولت عني ، ولم تعد تستقر على شيء . وشفته السفلى انفلتت من طرف شبكة شاربه الضخم وتدلت . ولكنه لم يلبث ان ارجع رأسه الى الوراء بحركة تشبه الى استخفافه بما يتردد في اعلانه .

ـ « يا استاذ .. لو حمل اليك الحظ امرأة تملك مليون ليرة (ورفع سبابته امام وجهي) وعذراء .. هل تتزوجها ؟ »

ونظرت اليه مندهشا . ماذا يقصد بقوله امرأة عذراء ؟.. هل يمكن ان تجتمع هاتان الكلمتان لانثى واحدة في بلادنا ؟ ولكنهما متناقضتان . لعله يقصد انها تزوجت مليونيرا ناقصا خذلته رجولته معها فقتل نفسه وورثها ثروته فاصبحت بذلك امرأة مليونيره .. وعذراء . ام لعله يعني انها قد بعدت قليلا في طريق الحياة ففاتها قطار الزواج فاصبحت عانسا ... ولم يعد ممكنا ان يقال عنها انها فتاة او بنت ... ونحن في حياتنا العامه لم نعتد ان نقول عانسا لان كلمة امرأة تظل اجمل وقعا في الاذن والنفس وان طبيبي زاد عليها صفة « عذراء » لما لهذه الصفة من وقع حسن في نفوسنا.

وألهاني تفكيري بكلامه عن الرد عليه . ولكن ماذا اقول ؟ انا لا اؤمن بحسنات هذا النوع من الزواج اصلا . فهو من الناحية المبدئية يفتقر الى مقومات الزواج الناضج . الزواج الناضج يرتكز على دعامات من الحب والتفاهم والمال .. وقد يهزأ بالمال في نظري.. ولعله في رأي طبيبي هذا يعتمد المال فقط ويهزأ بالحب والتفاهم .

ولكن هل يمكن لمليون ليرة ان تنسف الحب كقاعدة للزواج الناضج وتطوح بمفهومي له ؟.. لا .. لا يمكن خاصة واني لا ازال في مقتبل العمر لم تخذلني التجارب فتقلب اعتباري للحياة ولم اعرف الفشل بعد ، وما للمال من هيبة وقدرة لاغير من مبادئي . وقبل ان اجيب بالنفي على سؤاله سمعته يقول :

ـ « ولكن عمرها اربعون سنة . »

وعرفت لماذا قال انها « امرأة .. عذراء » فاذا بي اردد بذهول وبرود :

ـ « اربعون سنة ... »

فهز رأسه وغمز بعينه وانحنى يمينا وهو يبرم اصابع يده .

ـ « أي.. ثلاث واربعون . »

ـ « وثلاث واربعون ايضا ! »

ـ « ان ثلاث سنوات ليست فرقا يذكر . »

وراح يهز رأسه مؤكدا ان ثلاث سنوات ليست فرقا يذكر ..

وكان المسألة تتعلق بي بحق رحت اتساءل في سري : « هل يمكن ان اقبل زوجة لي من هي اكبر من امي التي ولدتني ؟ انا صاحب المثل العليا التي لم تتعرض بعد لسخرية القدر ولم تصدعها التجارب.. هل يمكن ان اتخلى عن مثلي ؟ هل يمكن ان اسوق شبابي عبر صحراء باردة مدفون في مكان ما فيها مليون ليرة ؟ وهل اكون زوجا وفيا لعجوز تشتريني بمليون ليرة ؟... هل تعطيني الحياة ولدا منها ؟ » واستيقظ في صدري عزرائيل صغير .. « هل تموت بسرعة وتترك لي المليون ليرة ؟ وقد اتعلق بعد الزواج بفتاة وتقف هي عقبة في طريق سعادتي وقد اقتلها ... قد اقتلها ، فالحب الاعمى يدفع الى ابشع من القتل ايضا ،... ولا بد سينكشف امري واقاد الى السجن المؤبد .. وربما الاعدام . فما فائدة المليون ليرة حينئذ .؟ ما نفع مال الدنيا باسرها؟ وقد لا تموت الا عندما اشيخ انا فاموت بدوري لا بحث عن فتاة تبيعني شبابها بمليون ليرة او بعضه .

اختلطت هذه الافكار في رأسي خلال فترة وجيزة قطعتها اعمارا واعمارا .. ثم قفلت عائدا الى واقعي على صوت الطبيب يردد ، بينما

يهز راسه من اعلى الى اسفل : « اربعون سنة .. ومليون ليرة .. اربعون سنة .. ومليون ليرة . » وكان فاتحا راحتيه كانه يزن فيهما المراة بكف والمليون ليرة بكف . ومع حركة من راسي كانت تتبع ناظري من يمينه الى يساره ومن يساره الى يمينه وجدتني اتمتم .

ـ « لا .. لا .. لا .. »

وخيل الي وهو يهز راسه بعنف انه يستنكر رفضي.. ثم لم يلبث ان استطاع ان يقول :

ـ « برافو يا استاذ ! »

قلت بحماس :

ـ « هذا ليس زواجا . انه يفتقر الى معنى الزواج . ففايته المليون ليرة وليس هو بذاته ..» وتخيلتني تزوجتها وقبعت امضي السنين واترقب موتها وهي تتشبث بالحياة وتنام على المليون ليرة .. وانا اوغل في العمر .. « هذا انتحار بطيء ! »

ولست ادري من اين جلب كل تلك الطيبة التي تجلت على وجهه .. وبرق زجاج احدى نظارتيه وهو يحرك راسه ويقول :

ـ « احسنت يا بني .. اهنيك .. هذا العرض قدمته لغيرك على سبيل التسلية وامتحان شباب اليوم . اتدري ؟.. ان كثيرين منهم رحبوا بهذا النوع من الزواج وحجتهم في ذلك ان الزواج شيء والحب شيء اخر . وكم وقر سمعي كثير من الضحكات المبطنة التي كانت تخفي وراءها الف شيطان وشيطان . تفضل .. افتح فمك .»

وانتهت القصة .. او هكذا خيل الي !

ـ « هل انتبهت يا استاذ الى السيدة التي غادرت العيادة الان ؟ انها هي صاحبة المليون ليرة . مسكينة . أغدقت عليها العناية المال .. وبخلت عليها بمسحة جمال . وفي صباها الصقت بها الاقاويل تهمة مغامرة طائشة فابعدت عنها ابن الحلال . ولم يرحمها العمر.. وها هي تكاد تستبدل باسنانها اخرى من ذهب .»

« واخيرا ، ورغم كل ذلك، تزوجت. تزوجت شابا جميلا كله حياة ورجولة . »

وملا عينيه من وجهي ثم غمز بعينه وهو يقول :

ـ « لا تؤاخذني اذا قلت لك انه انضر منك واحلى .. واغنى ايضا .. انا اعرفه .. اعرف عائلته .. انها غنية . ولكن ماذا تقول ؟ لقد احبها ! » (ورفع ذراعيه كانه يستغفر الله) « سبحان الله ! حقا ان المال يجر المال »

« كانت مع بعض افراد عائلتها تشاهد فلما سينمائيا فوقع نظرها عليه . شاب ممتلىء صحة ، يطفح وجهه حيوية .. اعجبها شبابه .. سالت عنه ، واوصلت اليه رغبتها في تقديم نفسها زوجة له . ولكي تثير قابليته او قل شهيته عرفته بدوطتها ... بالمليون ليرة .

« انا اقبل ان يستهوي هذا النوع من الزواج شيخا مثلي عجنته الحياة وخبزته .. وتغير اعتباره لها من المحسوس الى الملموس .. (وفرك سبابته بابهامه) .. ومارس الحب حتى اصفن ، فلم يعد يعنيه من الحياة الا ما يضمن له نهاية محترمة .. اما ان يقبل به شاب لا يزال الحظ يخبىء له المفاجآت ويهيىء له الفرص فمعنى ذلك انه فقير العاطفة بارد القلب ..

« هو لم يكن بحاجة .. فهو الى جانب اليسر الذي يتمتع به موظف في شركة للطيران بمهر .. آ .. باجر مجزم . وافق على الفور ، وحالا تم الزواج واستغنى الزوج عن الوظيفة . ولماذا الوظيفة؟ لماذا مذلة الشغل ؟!

« اثثت له بيتا فاخرا ، بيت وزير .. واشترت له سيارة كاديلاك موديل العام »

قلت وانا لا ازال اضع نفسي مكان الشاب العريس واتصورني اجري وراء حب حرمني نعمة الزواج ..

ـ « هذا النوع من الحياة لن يعقد ثمرا .. ويستحيل ان يكون شريفا . »

ـ « انتظر حتى اكمل حديثي . اقتنى خادمة .. (وضم رؤوس اصابعه الى بعضها ورفع يده الى مستوى كتفه ثم انزلها مستقيمة حتى فخذه كانه يريد ان يقول انها من نقرة راسها الى اخمص قدميها جميلة .. اية في الجمال) فهمت ؟»

فهتفت وقد اكتشفت معنى اشارته :

ـ « قل ذلك منذ البدء .. »

فهز راسه بسخرية وخبث وقال وهو يضحك ..

ـ « وهل تطيب حياة كهذه من غير خادمة جميلة ؟ ابلع ريقك جيدا (ثم وضع في فمي قطنة كبيرة ..) جرب الا تطبق فمك .»

ومرة اخرى خيل الي ان القصة انتهت ..

ولكني فوجئت بالطبيب يحرك راسه بعنف كانه ينفض عنه ذهولا خدر تفكيره ، وقال بتامل واندفاع .

ـ « مليون ليرة .. مليون ليرة ! انها شيء يستحق المجازفة . ان الحصول عليها حلم تفسيره الجنون . لا تقل انك ترفض مثل هذا الزواج يا بني. ترو قليلا .. فكر بعروس جميلة ، ساحرة ، رائعة وفتية .. لا تهرم .. لا تهرم ابدا، بل تظل في عنفوان شبابها وذروة جمالها .. اسمها مليون ليرة ..»

ـ « انا لا اتزوج فلوسا . »

ـ « هاها .. لاتزوج فلوسا . اما هو فقد تزوج فلوسا . تزوج العروس الساحرة الرائعة الفتية .. تزوج المليون ليرة .. تصوره يضاجع مليون ليرة .. يلهث وهو يحضنها ويهذي .. »

وحاول ان يحتوي اكبر فراغ ممكن بذراعه متخيلا نفسه يضاجع كومة من المال ويقبلها ويهمهم ويهتز امامي ويترجف ..

ورويدا رويدا سكن وعاد الى هدوئه ، واقترب مني.. ولكني فوجئت به يرفع يديه في وجهي ويقول بانفعال :

ـ « قلت لك الا تطبق فمك .. ارايت ؟ لقد ابتل القطن .»

(والتقط قطعة القطن بملقط الفضة ورماها في علبة على الارض)

... ابصق هنا ..»

ورقصت في صدري ضحكة خبيثة ما لبثت ان اطلقتها وقلت:

ـ « لقد سال لعابي يا سيدي..»

وبعصبية ظاهرة حشر قطعة قطن كبيرة بين لثتي .وبطانة خدي ثم ادار لي ظهره .. ووقف يتامل الشارع من النافذة .

كانت النافذة تطل على شارع ضيق تقوم على جانبيه حوانيت

صدر حديثا :

رسائل مورقة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب

صغيرة ترتفع فوقها ابنية متلاصقة رملية الجدران ضيقة النوافذ ينتؤ من بعضها مشربيات من الخشب المشبك ويرفرف في بعضها الاخر خرق صغيرة تضحك للشمس .. ويطل من هذه النوافذ بين الحين والحين اذرع ممتلئة واوجه رقراقة ابرز ما فيها عيون مكحلة زئبقية الحركات .

وقف الطبيب ولم يعد يتحرك . مد عنقه الى الامام فانحنى راسه قليلا فتصلبت رقبته فبدا كحمال ينوء تحت حمل ثقيل . ثم التفت الي فاذا عيناه تنظران الى ابعد من المدى الذي بيني وبينه .

ـ « يا عزيزي ان مليون ليرة تصنع المعجزات .»

وهززت راسي موافقا دون تفكير ..

ـ « تشتري هذا الشارع ... »

وجمد ! لم يرف له جفن . عيناه الواسعتان تطلان من فوق نظارتيه ولا تتحولان عن عيني . ويده المشيرة من وراء ظهره الى الشارع لا تزال تشير اليه . وظهرت بعض امارات الاجهاد على وجهه المشدود .. واحمرت زاويتا عينيه .. « ترى اية انفعالات يكابد هذا الشيخ اليوم . ماذا في عماقه ؟ هل تتجاذبه اطماع ؟.. هل يتمنى لو يعود الشباب و... ولكنه لا يزال جامدا ، لم يتحرك بعد! فمتى يتحرك ؟ لاعمل شيئا .. لارد عليه علي اساعده على تغيير وضعه المتعب على الاقل. ولكن ماذا اقول .. قلت بلا تفكير مصادقا على قوله .

ـ « تشتري ... »

ـ « على الجهتين ... » ورهز دون ان يغير وقفته .

ـ « على الجهتين .»

فاذا به يسترخي ثم يقترب مني وهو يهز راسه ببطء ويقول بتؤدة .

ـ « اتدري كم تعطي المليون ليرة سنويا ..؟ (ومال الي وهمس في اذني كانه يفضح سرا دوليا خطيرا)... انها تعطي اكثر من مائة الف ليرة .. »

ورددت موافقا : « تعطي » .

ـ « واذا اضفت الى راس المال مثل هذا المبلغ فان الدخل يزداد فيعطي في بضع سنوات مئات الالاف ..»

وهززت راسي موافقا ..

ـ « ومع الايام يصبح دخلك الشهري وليس السنوي اكثر من مائة الف ليرة .

ـ « يصير ... »

وجمد جبينه وكادت عيناها تختفيان ..

ـ « اي في اليوم ثمانية او تسعة الاف ليرة .

ـ « . . . . . »

ـ يعني في الساعة ثلاثماية وستون ليرة .. وفي الدقيقة.. ٢ .. ست ليرات (ونظر الي مقطبا) « وكل عشر ثواني ليرة ... تكتكتك ... تك : ليرة ، تكتكتك ... تك : ليرة

وكرر ذلك مرات ومرات .. وكان يخبط برجله على الارض ويشير بيده كانه « يعطي » كلما قال ليرة .. ويضحك ويضحك .. ويعبق وجهه ويحمر وتتصلب عضلاته .

*

لم تنته القصة بعد !

رويتها لاحد الاصدقاء فاذا به لا يضحك ابدا .. بل ينظر الي اولا ينظر الي .. لست ادري ! كانت عيناه تبرقان كانه يستوحي شيئا ثم اذا به يتمخض عن هذه العبارة ..

ـ « اي انها تعطي في الثانية ستة قروش .. »

وادخل شفتيه في فمه وهز راسه وسكت

« يا الهي ! متى تنتهي هذه القصة ؟! »

بيروت — عبد الفتاح الحسن

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ١٠ يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣